العوامل الحجاجية في شعر الشريف الرضي

م.م. رياض قاسم حسن
أ.د . عدنان عبد الكريم جمعة
جامعة البصرة / كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

الملخص

كشف البحث عن أنّ استعمال الشريف الرضي للعوامل الحجاجية للقضاء على تعدد الاستلزامات ، وتوجيه الخطابات نحو إتجاه واحد محدد ، فالعوامل الحجاجية هي التي تعين المتلقي في الكشف عن معنى النص ؛ وذلك للأثر الواضح في عملية التوجه الحجاجي ، لأنها من الوسائل اللغوية التي يلجأ إليها المتكلم حينما يريد أن يقنع المتلقي بالنتيجة ، فهي التي تعمل على تقليص الإمكانات الحجاجية للقول الواحد داخل الخطاب ، فضلاً عن الوظيفة الثانية التي تقوم فيها زيادة الطاقة الحجاجية في التوجه نحو نتيجة ما.

وأبرز العوامل التي ذكرها البحث هي (عامل النفي) الذي تظهر وظيفته في إقناع المتلقي ، لذلك أصبح من حجج القصد التلميحي ، حينما يكوّن المتكلم تقرير الحجج من خلال التلميح والبيان ، وكذلك استعماله لعاملي (القصر والاستثناء) ، اللذين يزيدان من القوة الحجاجية ، ويعملان على توجيه المتلقي أنْ يلتزم بالنتيجة.

والمعروف أنّ القصر والاستثناء هما اللذان يضيفان إلى الكلام قوة حجاجية لها الأثر في زيادة الطاقة الحجاجية من خلال التوجيه الحجاجي باتجاه النتيجة ، فهي تراكيب تترتب فيها الحجج بحسب درجة القوة الحجاجية.

Summary

The search revealed that the use of the pilgrim to the factors of the pilgrims to eliminate the multiplicity of obligations, and to direct the speeches towards one specific direction, the factors are the pilgrims are the recipient of the disclosure of the meaning of the text; for the obvious impact in the process of the orientation of pilgrims, because it is the language means that the speaker resort when he wants To convince the recipient of the result, they are working to reduce the possibilities of

the pilgrims of one say within the speech, as well as the second function in which the increase of the energy of the pilgrims to move towards a result .

The most important factors mentioned in the research are the "negation factor" whose function appears to convince the recipient. Therefore, it becomes one of the arguments of the teleological intention, when the speaker is the author of the arguments through the hint and the statement, Direct the receiver to adhere to the .result

It is known that minors and the exception that add to the power of the pilgrims have the effect of increasing the energy of the pilgrims through the direction of the pilgrims towards the result, they are the structures of the arguments according to the degree of power of the pilgrims .

التمهيد

مفهوم العامل الحجاجي

إنّ طبيعة الحجاج التي اهتمَّ بها ديكرو وانسكومبر عامة ، وظاهرة العوامل الحجاجية خاصة ، هي أنّ يقدّم المحاج قولاً في بداية المحاججة (ق١) ، أو مجموعة من الأقوال التي بدورها تقود المتلقي إلى التسليم بقول آخر (ق٢) ، فالمقصود بالحجاج الانتقال من (ق١) إلى (ق٢) ، وهذا الانتقال يُعرف بفعل التوجيه ، و فعل التوجيه هو الانتقال أو الانزياح من موضع أول معلوم إلى موضع ثانٍ ، ربّما كان صريحاً أو ضمنياً ، وهو النتيجة التي يريد المتكلم من خلالها إذعان المتلقي بها[١] .

والعوامل الحجاجية لا تعمل على الربط بين الحجة والنتيجة ، أو بين مجموعة من الحجج ، وإنّما وظيفتها تكمن في حصر الإمكانات الحجاجية وتقييدها التي تكون للقول الواحد داخل الخطاب ، فهي تختلف عن الروابط الحجاجية ؛ لأنّ الرابط الحجاجي عبارة عن مورفيم من صنف الروابط (حروف العطف ... الخ) وظيفته لربط وحدتين دلاليتين ، وينبغي أنْ تُسند لكل قول دوراً حجاجياً محدوداً داخل الأطر الاستراتيجية

الحجاجية ، أمّا العوامل الحجاجية فتعمل على توجيه الملفوظ وإثباته ، وجعل ما يحمل على أنّه واقع لامحالة ، فهي تقوم بتقييد الإمكانات الحجاجية وحصرها ، حيث تضم أدوات منها (إلّا ، ما ، لا ، لم ، إنّما ، تقريباً ، قليلاً ...) ، وهي مكونات لغوية قد أشار إليها ديكرو ، إضافة إلى ذلك أنّها عناصر إسنادية نحوية أو معجمية(٢) ، فحينما نقول :

الساعة تشير إلى الثامنة.

ونقول : لا تشير الساعة إلّا إلى الثامنة.

نلحظ الاختلاف بين القولين من حيث القيمة الإخبارية ، وإنّما الاختلاف يكمن في القيمة الحجاجية ، أي الإمكانات الحجاجية التي يمنحها القول في بعده التداولي ، **فالمثال الأول** : وظيفته هي خدمة النتيجة من قبيل (اسرع) ، ناهيك عن خدمتة لنتيجة (لا تسرع) ، والقيمة هنا كما يبدو ضعيفة ، **أمّا المثال الثاني** : فإمكاناتها الحجاجية قلّصت والقول قد أصبح يخدم نتيجة واحدة (لا تسرع) بذلك تكون قيمة حجاجية قوية ؛ والسبب في ذلك هو دخول العامل الحجاجي الذي جعل المثال الثاني مؤكداً بوساطة الحصر أو القصر (لا + إلّا)(٣).

وذكر المبخوت أنّ الرابط الحجاجي يختص بعناصر الكلام كقولنا : (نجح محمد وعلي ، لكنْ زيدٌ لم ينجح) ، وأمّا العامل الحجاجي فيختص بالجملة كلّها ، فحينما نريد أنْ ندخل أسلوب الحصر (النفي وإلّا) على المثال أعلاه يكون : ما نجح من الطلبة إلّا محمدٌ.

وقد ذكر أمثلة توضيحية أخرى تبين إسناد ما ذُكِر ومنها:

أ. لن نفتقر فثمن التذكرة ثلاثون ديناراً.

ب . سنفتقر فثمن التذكرة ثلاثون ديناراً.

فإذا أدخلنا العامل الحجاجي على المثالين :

ج . لن نفتقر فما ثمن التذكرة إلّا ثلاثون دينارا.

د . سنفتقر فما ثمن التذكرة إلّا ثلاثون ديناراً.

الظاهر من ذلك أنّ المثال رقم (ج) مقبول وحسن ؛ وذلك بسبب دخول الحصر على الجملة ، وتوجيهها توجيها حجاجياً إيجابياً ، فهي وجهٌ تعزّز النتيجة (لن نفتقر) ، وهذه هي الوجهة الحجاجية الإيجابية موجودة في بنية (ما ... إلّا) ، أمّا مثال : سنفتقر رقم (د) فغير مقبول و لامستساغ(٤).

ويعدُّ العامل الحجاجي الوحدة اللغوية إذا عملت في ملفوظ معين ، وذلك الأمر هو غايته إعطاء الطاقة الحجاجية لذلك الملفوظ ، وهذا هو التحويل الذي يقوم به العامل الحجاجي في المحتوى الدلالي للملفوظ الذي يرد فيه لا يضيف مضموناً خبرياً جديداً ، بل هدفه شحن وتحويل المضمون الخبري القائم ؛ كي يؤدي وظيفة تتلاءم مع الاستراتيجية الحجاجية لهذا الملفوظ(٥) ، فالعوامل الحجاجية هي ((عناصر لغوية تنتظمها غاية واحدة ، وهي تحقيق الخطاب للإقناع في عملية التواصل))(٦) ، فتتضمن العوامل الحجاجية أثراً بارزاً في دراستها للحجاج اللغوي ، إذ لها وظيفة لغوية تتضح من خلال التوجيه الحجاجي للجملة ، من حيث انتقاء الصيغ المحورية الملائمة لسلسلة الحجاج(٧).

وقد عُرِّف العامل الحجاجي بأنّه ((صُرفة تحول الاحتمالات الحجاجية للمضمون المطبقة عليه ، وتمتد العبارات المتغيرة بإمكانية استعمالها لغايات حجاجية))(٨).

وقد حدّد الدكتور عز الدين الناجح الوظائف الأساسية التي يتمتع بها العامل الحجاجي ، من خلال ما أسماه بالحجاج التقني الذي يقوم على القول بالتوجيه عندما يدخل على الملفوظ ، ومن أهم هذه الوظائف ما يأتي :

١ـ قدح المواضع وتنشيطها ؛ لأنّ الموضع يشكل العمدة الأساسية في ارتباط (ق١) ، بـ (ق٢) ، فضلا عن ذلك أنّه عنصر من عناصر التنسيق ، وذلك ضامن من ضمانات تسلسل الخطاب.

٢. تقوية التوجيه نحو النتيجة (ن) ، وهذا ما يسمى بالسلم الحجاجي.

٣. قدرته على القضاء على تعددية الاستلزامات من حيث نقل المتقبل من التعدد والغموض إلى وحدة النتيجة ، فيقوم العامل الحجاجي بحصرها ؛ حتى تنقاد النتيجة واحدة ، من خلال الانتقال بالملفوظ من الإبلاغية إلى الحجاجية(٩).

ويعد العامل الحجاجي أداة من خلالها يتم تحقيق الوظائف ، إضافة إلى ذلك هو عنصر مساعد لإبراز المظهر الحجاجي في اللغة(١٠).

ومن أبرز العوامل الحجاجية في شعر الشريف الرضي :

أولاً/ عامل النفي:

يراد بالنفي في اللغة هو الجحد ، فنفي الشيء بمعنى جحده(١١) ، والجحود يعني الإنكار(١٢) ، وزاد تفريقاً لغوياً أحد الدارسين ، فأوضح بأنّ النفي يعني الطرد والإبعاد ، وأمّا الجحد فهو إنكارك بلسانك الأمر الذي تستسيقنه نفسك(١٣) ، وتتعدد أنواع النفي وكذلك تتباين تراكيبه ، فمنه ما هو صريح إذا جاء بأداة صريحة ، نحو: (لا) و (ما) وغيرها ، أو ما كان متضمناً معنى النفي ويكون بأساليب معينة كأسلوب الشرط والاستفهام الإنكاري والتمني(١٤) ، ومن النوع الثاني قول الشريف الرضي :

لو رَدَّ عنك المنايا الـ ـعِجَالَ طَعْنٌ وَضَربُ

لَخاضَ فيها سِنَــانٌ ماضٍ وَطَبَّقَ غَضْبُ

وقام دونَ الرّدى غُلْـ ظُ السّواعدِ غُلــبُ(١٥)

يقصد بذلك ما خاض سنانه فيها ؛ لأنّه لا يستطيع ردّ المنايا العجال في قوله : (لو ردّ عنك المنايا... لخاضَ...) ، فينفي بأنْ تكون هناك رجعة .

ويعد عامل النفي من العوامل التي بوساطتها يتم إنجاز الوظيفة الحجاجية للغة ، التي تتمثل إمّا في إنكار القضية ، أو رد فكرة معينة ، أو هدم تصور ، فالقصد هو إثبات نقيض ذلك حتى تقيم ما يخالفه ، و ذهب ابن يعيش بأنّ النفي هو ((إنّما يكو ن على حساب الإيجاب لأنّه إكذاب ، فينبغي أنْ يكون على وضع لفظة لا فرق بينهما ، إلّا أنّ أحدهما نفي والآخر إيجاب))(١٦).

فالنفي يمكن أنْ يأتي لغير الإكذاب والتكذيب ، إذ ليس من الممكن أنْ يكون مجيؤُه رداً على الرأي المخالف الذي يقوم بصياغته المتلقي صياغة إثباتية ، فهو عبارة عن نفي الشيء مقيداً أي نفيه مطلقاً ، وهذا من أساليب العرب التي تدل على المبالغة في النفي ، نحو : (فلان لا يرجي خيرا) ، هنا ليس المقصود أنّ فيه خيرا لا يرجى ، وإنما قصدهم أنّه لا خير فيه على وجه من الوجوه، ويمكن القول : إنّ النفي قد ينشأ عنه مفهوم مخالفة في غير السياق الذي يخص التكذيب والإكذاب ، أو الردّ على الخصوم ، وذلك يكون من قبيل الأحكام المستفادة على وجه الاستلزام من حيث الكلام المنفي الذي قُيِّدَ بصفة ، أو يعد حاملاً لمعناها فحسب(١٧).

وقد علّل الدكتور مهدي المخزومي أنّ سبب وصفه بأسلوب النقض والإنكار ؛ يرجع إلى دفع ما يتردد من كلام في ذهن المخاطب ، فيجب إرسال النفي مطابقاً لما يلاحظه المتكلم من الأحاسيس التي ساورت ذهن المخاطب خطأً ، من خلال ما اقتضاه بإزالة ذلك بوساطة أسلوب النفي(١٨) ، فمن خلاله يقوم المحاجج بتوجيه حججه إلى ما يريد ، فضلاً عن سيره إلى إدراك النتيجة التي يروم إدراكها(١٩).

وقد أكدّ ديكرو في نظرية السلالم الحجاجية أنّ للنفي نصيب الأسد من خلال تحديد وجهة الخطاب الحجاجية ؛ لأنّها أدق العوامل الحجاجية في تحديد منزلة الملفوظ من السلم الحجاجي ، وقد انطلق من حيث مفهومه الدكتور عز الدين الناجح من خلال المثالين الآتيين :

١. لم يقرأ زيد جميع روايات بلزاك.

٢. قرأ زيد بعض روايات بلزاك.

فيحدد بمثاله الأول الذي يعده الموجه نحو النتيجة السالبة ، وهي أنّ زيداً لا يعرف بلزاك جيداً ، أمّا المثال الثاني أثبت العكس بالنسبة للمثال الأول ، فهو موجّه نحو النتيجة الإيجابية ، إذ إنّ زيداً يعرف بلزاك مُقرّاً بذلك

ديكرو أنّ عامل النفي لا يمكن أنْ ندركه إلّا عندما ندرك النتيجة التي يروم المتكلم فيها توجيه المتلقي إليها ؛ لأنّه من أجل ذلك تتم عملية تحديد درجة الملفوظ الحقيقية من السلم الحجاجي ، فالنفي تلفظ على تلفظ ، أي توجيه على توجيه ، والنتيجة تتحدد بمجرد إدماج عامل النفي ولا يكون هناك حرج عند المتلقي في إدراكه للمفهوم ، وإنّما يرى هناك قيمة إضافية للنفي ، فهو يُستعمل لوصف البنية الدلالية العميقة للملفوظ الذي يبدو أنّه غير منفي(٢٠). ، فالنفي من الأبنية القولية التي وظيفتها هي السماح بإدخال متحدث آخر في النص نفسه ، ولكن بشكل غير مباشر ؛ حتى يظهر بعد ذلك إلى الرفض أو التأييد ، فهو يتضمن مقولة الإثبات ، فحينما نقول : أحمد ليس صغيراً نقصد بذلك أنّه كبير وناضج ، ويعني بذلك أنّ النفي يدل على تعدد الأصوات ، من حيث أنّه يقوم بالسماح للمتكلم بالتعبير المتزامن عن الصوتين المتقابلين ، صوت يتبنى جانب الإثبات ، وآخر يتبنى جانب النفي ، وهذا النفي تكمن فيه الإشارة إلى الإثبات الضمني والرد عليه ، حتى يجعله تجلياً واضحاً لتعدد الأصوات في الخطاب(٢١).

ونلحظ من ذلك أنّ كلّ قول يأتي منفياً تكون وظيفته الحجاجية هي إقناع المتلقي ، لذلك أصبح النفي من حجج القصد التلميحي ، حينما يكون قصد المخاطب تقرير الحجج من خلال التلميح .

ومن أبرز أدوات النفي التي وردت في شعر الشريف الرضي هي :

أولاً : لا النافية : ومن أبرز معانيها :

١. نافية للجنس. عاملة عمل (إنْ). ٢. نافية غير عاملة. ٣. نافية عاملة عمل ليس ٤. عاطفة وجوابية(٢٢). ، و (لا) من أقدم أدوات النفي في العربية ؛ لأنّها أولى الأدوات ، فالدراسات الحديثة تشير إلى أنّ الأدوات اللاحقة بها نحو (ما ، إنْ ، لمّا ، ...) ما هي إلا أدوات اخترعتها العربية نفسها ، وتدخل على الجمل الاسمية والفعلية(٢٣).

قال الشريف الرضي:

مَن كان يغتابُ الرجالَ وهم أنْ يبلو الأصادقَ فالصديقُ المُطرِقُ

وإذا تألقتِ الثغورُ لِسبّـــةٍ لمْ يدرِ ثغراً أو سَناً يتـألــقُ

لا تملِكُ الفحشاءُ جانبَ سمعه وَيزِلُّ قولُ الهُجرِ عنه ويزلَقُ

جارَ الزمانُ فلا جوادٌ يُرتجى للنائباتِ ، ولا صديقٌ يَشفِـقُ(٢٤)

يتمنى الشريف الرضي أنْ يكونَ له صديق لا يمتلك هذه الصفات ، وإنّما صفته المحببة بأنّه لا يملك الفحشاء جانب سمعه ، ويكون مرتفعاً عن الدنايا ولو كانت قولاً ، فهو يحبذ الصديق المطرق ، أي الساكت عن الكلام.

فالحجة الأولى هي (لا تملك الفحشاء جانب سمعه) ، وهذه مفادها حبه للصديق الذي يبتعد عن الاغتياب ، وأضاف حجتين أُخريين ، هما :

الأولى : فلا جواد يُرتجى ؛ بسبب جور الزمان نفى أنْ يكون هناك جواد ترتجيه نفسك ليحميك في النائبات لعدم وجود ذلك الصديق الشهم الغيور، والحجة الثانية (ولا صديق يشفق ، فهي تتضمن نتيجة مفادها أنّ مَن لا يكون له جواد في النائبات والمحن لا يبقى له صديق يشفق عليه ، وهاتان الحجتان أبطلتا مقتضى يُفترض أنْ يتضمن المساواة بين من تملك نفسه الفحشاء ، ليكون في مستوى متدنٍ ، وبين الشخص المطلوب الذي لا يملك في سمعه الفحشاء ، ويهجر قول النفاق وغيره ، فيحتل النفي في البيت الأول طاقة حجاجية كبيرة ؛ لأنّه يشمل الحاضر والمستقبل ، فضلاً عن امتلاكه قوة تأثيرية في المتلقي.

وقال في موضع آخر:

قد لبِستُ الخُطُوبَ سُوداً وَبِيضاً وقطعتُ الزمانَ طُولاً وَعَرْضَا

وَوَرَدْتُ الأمورَ صَفْواً ورَنْقَاً ورَعَيْتُ الآمال رَطْباً وحَمضَا

أبرمتْ لي من صَنْعَةِ الدّهر لا يُسرعُ فِها إلّا المنـايـا نفضَا

كم مقَامي تُلْقِي عليَّ اللّيـالـي نُوباً لا أُطيقُ منهُنّ نَهْـضَا

وخُطوباً إذا نَحَتْنَ مِن العظْـ ـمِ فلا بِدْعَ إنْ عَرَقْنَ النَّحضَا(٢٥)

هذه الأبيات تكشف عن بنية الشريف الرضي النفسية ، عندما يلبس الخطوب بأنواعها وشكوى الزمان وتجرعه لمرارة الآمال ، وكذلك عسر المواقف ، فضلاً عن رضاه بما قُسِم له من أهوال وخطوب تدق العظام وتنهش اللحم وتحيله إلى وبال.

الحجة المنفية (لا أطيقُ منهنّ نهضا) هي تتجه نحو نتيجة واحدة وخلّصت الفعل إلى الحال والاستمرار ، وهي إقناع المتلقي بعدم تحمّله نكبات الدّهر التي تحاول أنْ تساير ركب الأيام ، فالمتلقي يشعر أنّ نفس الرضي قلقة يؤنبها ظلم الزمان.

وقال أيضاً :

قالوا : رَجَوتَ النّدى منهُ بلا سببٍ فقلتُ : هل سَببٌ أقوى من الكَرَمِ

وسيلتي أنّه غيثٌ ولي ظـمـأٌ وإنْ ظَمِئنا توسلّنا إلى الدِّيَمِ

قرَعْتُ بابكَ لا أخشى تَمـنّعه فإنْ تَمَنَّعَ لم أعذلْ ولم أَلُـمِ

لم أرمِ بالظّنّ إلّا مَن يُصـدّقُهُ ولا تَوَخّيْتُ إلّا مـوضعَ النِّعَمِ

ما الذّنبُ للمُزنِ جازتني مَوَاطرهُ وإنّما الذّنبُ للأرزاقِ والقَسِمِ(٢٦)

الشريف الرضي هنا يتقنع بمطلب السائل ، ففي مقطوعته هذه يجعل نفسه راجياً الندى ، وهو أمر لم نألفه على لسانه ، لكنّه جاء ذلك امتثالاً للسائل ، فالقصد من ذلك أنّ هذا القول ليس بالحقيقة وأنّ الشريف الرضي تمثّله هذه الأقوال دائماً على لسان غيره.

والملاحظ من ذلك أنّ توجيه المتلقي لنتيجة واحدة وهي الإقناع والتأثير فيه ، فالحجة المنفية (بلا سببٍ) ، التي يترجى فيها الندى ؛ لأنّه غيث وفيه كرم عليه ولا يعدّ ظمأً ، ولو عُدِّ ظمأً لتوسل إلى المطر الذي يدوم أياماً ، فهذه الحجة تعدّ رداً على من يعتقد أنّ هناك سبباً أقوى من الكرم ، فضلاً عن نفيه ذنب المزن وحصره الذنب بالرزق والقسمة التي يخصصها تعالى له.

ثانياً/ ما : تختص بنفي الجملة الأسمية والفعلية ، فيكون تأثيرها الإعرابي في حال دخولها على الجملة الاسمية ، كالذي تحدثه (ليس) ترفع ما بعدها اسماً لها وتنصب الثاني خبرا لها ، وذلك مشروط بأمرين :

الأول : عدم الانتقاض بـ (إلّا).

الثاني : حفاظ الجملة على رتبتها ، أي لا يتقدم خبرها على اسمها(٢٧) ، فجاءت في قوله :

وكم صدْرِ موتورٍ تَطَلّعَ غَيْظُه وقلّبَ قولاً عن لسانِ مـرِاءِ

يُغَطّي على أضغانِــهِ بِنِفَاقِـهِ كذي العَقْرِ غطّى ظهرَهُ بكفاءِ

كَرَرْتَ عليهِ الحِلمَ حتــى قتَلتهُ بِغيرِ طِعَانٍ في الوغى ورِمَـاءِ

وليس فتًى مَنْ يدّعي البأس وَحدَه إذا لـم يُعَوِّذْ بأسَــهُ بسَخَـاءِ

وما أنتَ بالمبخوس حظّاً من العلى و لا قانـعاً مِنْ عَيْشِهِ بكُفـاءِ(٢٨)

يمدح الشريف الرضي الطائع لله ، وينفي عن نفسه التخاذل والخوف ، واصفا نفسه بالحليم ، فضلاً عن اقترانه بالقوة والبأس والسخاء ، وولوج المعاني وعدم الركون للدّعة والسكون، فقد بان أثر الرابط الحجاجي في نصه الشعري ، من خلال الربط بين الحجج ، إذ تخرج النتيجة التي تقع بعد (حتى) بأنّها النتيجة الأقوى من بقية الحجج التي تقع قبلها ، ويتضح ذلك من خلال المخطط الآتي :

(اظهار ضعف الخصم)

صدرَ موتورٍ تطلع غيضه

تغطية الأضغان بالنفاق

الرابط الحجاجي (حتى)

ن/ القتل بغير الطعن (بالحلم)

فاستعمل الرابط الحجاجي (حتى) بين حجتين ، الأولى : وهي الصدر الموتور (المقتول) ؛ بسبب شدة الغيظ ، والثانية : إخفاء حقده من خلال نفاقه ، كالجريح الذي يستر جرحه تخفياً ، والملاحظ أنّه قد ربط من خلال نصه هذه الحجج بالنتيجة ، التي لها وجهة حجاجية واحدة ، لكنّها تخدم نتيجة واحدة، فضلاً عن إشارته إلى حجته التي تدخل ضمن العامل الحجاجي (ما) التي دخلت على الجمل الاسمية التي بوساطتها استطاع أنْ يبين أثر هذا العامل الحجاجي من خلال تدرجه وفق السلّم الحجاجي الآتي :

(اعلاء صفة الممدوح)

عدم كفاية البأس وحده

العامل الحجاجي (ما)

بيان مكانة الممدوح من العلى

فقد رتّب حججه بحسب القوة ، وكذلك يوجه المتلقي نحو نتيجة واحدة ضمنية كانت أم صريحة، أنّ الغاية من ذلك إقناع المتلقي بصدق ما يقوله ، وعلى أثر ذلك جاءت حججه متدرجة من الأضعف إلى الأقوى مدلولاً ؛ والسبب في ذلك هو أنّ العامل الحجاجي مختص في توضيح وكشف جهة الملفوظ الحجاجية ، من خلال ما يشوبه من تعدد في التأويلات ، فضلاً عن ذلك الأثر المهم الذي يكمن في ضمان التوجيه الحجاجي للملفوظ نحو النتيجة المطلوبة(٢٩)

وقد دخلت (ما النافية) على الجملة الفعلية ، **وجاء ذلك في قوله :**

أعلِمتَ مَن حَمَلُوا علـى الأعـوادِ أرأيتَ كيف خَبَا ضِياءُ النّادي

جبلٌ هوى لو خرّ في البحرِ اغتدى من وقـعِهِ مُتتَابِـعَ الإزْبادِ

ما كنتُ أعلمُ قبلَ حَطّكَ في الثّـرَى أنّ الثرى يعلو على الأطـوادِ

بعداً ليومك في الزمــانِ فإنّـهُ أقذى العُيُونَ وفَتَّ في الأعضادِ(٣٠)

يبين الشريف الرضي عظمة المرثي ومزاياه ، وكذلك تُلْحظ جسامة الخطب الذي حلّ به ، لذلك يعز في نفسه الفراق ، ويتعاظم عنده الأمل ، فيستطيع أنْ يرسم لوحة من المفاهيم ، أو المعاني المجردة ، فضلاً عن الطابع

الحسي ؛ لأنّ الحجة المنفية التي وصفها الشريف الرضي بقوله : (ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى) ، هنا ينفي أنْ يكون مصير المرثي في الثرى وهو الجبل العالي ، ففي كلامه إقناع المتلقي من خلال هذه الحجة المنفية التي بدورها تقوم بخدمة النتيجة.

ثالثاً/ ليس :

من أبرز أدوات النفي وأهمّها ، فقد تدخل على الجملة الاسمية لتنفي الخبر عن المبتدأ ، وكذلك لنفي محتوى الجملة في الحال ، قال ابن يعيش أنّ ((ليس فعل يدخل على جملة ابتدائية فينفيها في الحال ، وذلك أنّك إذا قلت : زيدٌ قائم ففيه إيجاب قيامه في الحال ، وإذا قلت : ليس زيد قائماً فقد نفيت هذا المعنى))[٣١] ،ولها تأثير إعرابي في ركني الجملة الأساسيين وهما المسند إليه والمسند ، فالأول يكون مرفوعاً وهو اسمها والثاني منصوباً وهو خبرها[٣٢].

وقد اعترض السامرائي على قول النحويين بأنّ (ليس) تستعمل لنفي الحال ، فذكر أنّ استعمالها في الحال متى ما كانت على الإطلاق ، ولكن إذا قُيّدت بزمن أو غيره فيكون نفيها هنا للمستقبل وليس الحال ، كقوله تعالى : ((ألا يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم))[٣٣] ، فيكون نفيها بحسب القيد الذي تُوضع فيه[٣٤] ، وذكر المبخوت أنّ النفي له قيمة إعلاء الصفة ، نحو : ليس زيد ذكياً ، بل إنّه عبقري[٣٥]. وأوردها الشريف الرضي **في قوله :**

إيّاك أنْ تسخُو بوعـ ـدٍ ليس عزمُكَ أنْ تفي بهْ

فالصّدقُ يَحْسُنُ بالفتـى والكِذْبُ يُحْسَبُ من عُيُوبِـهْ

وإذا قدَرتَ على الوفـا ءِ فَعَدِّ عن غدْرٍ وَذِيبِـهْ

أشكوكَ أم أشكو الزّمـا نَ لأنّ مَطْلَكَ مِن ذُنُـوبِـهْ[٣٦]

الملاحظ أنّ المناسبة التي قال فيها الشريف الرضي هذه الأبيات ، هي عبارة عن رسالة كتبها إلى صديق له وعده بوعد ، لكنّه لم يفِ بوعده للشريف فحذّر أنْ تعطي وعداً ولا تفي به مع الاستطاعة على فعله.

إنّ القول المنفي هنا (ليس عزمك أن تفي به) هو نفي غايته الابتعاد عن الكذب ، فهو يتضمن خبراً إثباتياً حاصلاً في الواقع ، وكذلك هو ينفي العزم بإيفاء الوعد ، بذلك تكمن حجاجية النفي من خلال توجيه المتلقي إلى نتيجة واحدة مفادها تجنب الكذب وعيوبه ، ونلحظ كذلك أنّ في النص إعلامية عالية تتضح عندما يجعل المرسَلَ إليه بمنزلة مَنْ لا يعلم لكونه وقع منه الخُلف بالوعد ، فأرسل إليه نصاً لا يُخفى مضمونه من باب تجاهل العارف وخلط الشك باليقين ، فضلاً عن إدراكه أنّ الجهل الذي وقع فيه قد أصبح واقعاً في الأمور

التي لا خلاف في صحتها ، وتبرز الغاية من ذلك هي إقناع المخاطب بشكل خاص والمتلقي بشكل عام بهذه النتيجة.

وقال في مورد آخر :

وقـورٌ فلا الألحَانُ تأسِرُ عَزْمَتي ولا تمكُرُ الصّهبَاءُ بي حينَ أشرَبُ

ولا أعرِفُ الفَحْشَاءَ إلّا بَوصْفـهَا ولا أنطِقُ العَوْراءَ والقلبُ مُغْضَبُ

تَحَلّمُ عن كَرِّ القَـوارِضِ شِيمتـي كأنّ مُعيدَ المدحِ بالــذّمِّ مُطْنِبُ

لساني حَصَاةٌ يَقْرَعُ الجهلَ بالحِجَى إذا نـالَ مِنّــي العَاضِهُ المُتَوَثِّبُ

ولستُ براضٍ أنْ تَمَسَّ عزائمـي فُضَالاتِ ما يُعطي الزّمانُ وَيَسلُبُ(٣٧)

يعرض الرضي هنا ـ في مقام الفخر ـ ترفعه عن كل دنيئة فلن تزعزعه تلك الخمرة التي تذهب بعقول الآخرين ولا الألحان ، وكذلك يتجرد عن كل الموبقات والفحشاء ، ويبعد نفسه عن نطق البذيء من الكلام ، أو أنْ يصيب الزمان عزيمته بمده أو جزره.

فضلاً عن ذكره العامل الحجاجي (ليس) بعدما أسند إليه ضمير المتكلم ، فهو يتضمن خبراً إثباتياً حاصلاً في الواقع أو مفترضاً ، ويعرض حججه بحسب التخطيط الآتي :

الدلالة على علو المنزلة والترفع

التخلي عن كرّ التقريض

يبين أنّ لسانه هو رزانة عقله

لا يقبل أنْ تمس كرامته

فهنا قد أبطل كرّ التقريض ، وعده ليس من شيمته ، وأنّ لسانه صادح كالحصاة يقرع ويواجه الجهل بمختلف مجالاته بالعقل والرزانة ، لذلك قد أكسب النص طاقة حجاجية ساعدت على إضافة شحن المضمون الخبري ، كي يقوم بوظيفة تتلاءم مع الاستراتيجية الحجاجية للمتلفظ(٣٨)

ثانيا/ عامل القصر :

هو أسلوب من أساليب اللغة العربية تدور معانيه في المعجمات العربية حول الحبس والمتانة والحصر والجزالة(٣٩) .

وفي الاصطلاح يعني ((تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثانٍ ، كقولك : زيد شاعر لا منجّم لمَن تعتقده شاعرا ومنجما))[٤٠] ، فهو تخصيص الشيء بالشيء من خلال طريق يخصه أو مخصوص به[٤١] ، والمقصود بـ (الشيء) هنا (المقصور والمقصور عليه) فغايته هي تخصيص شيء بشيء وإثبات أحدهما للثاني وأيضاً نفيه عن غيره[٤٢] ، وكذلك عرّفه الكفوي بأنّه ((جعل أحد طرفي النسبة في الكلام سواء كانت إسنادية أم غيرها مخصوصاً بالآخر بحيث لا يتجاوزه ، إمّا على الإطلاق أو بالإضافة بطرق معهودة))[٤٣].

وللقصر ضربان هما :

الأول قصر الصفة على الموصوف ويعني امتناع مشاركة غيره في الصفة ؛ لأنّ الصفة هي للموصوف ، فلا يمكن أنْ تكون لغيره ومع ذلك يمكن أنْ يكون للموصوف صفات أخرى ، وأمّا الثاني فهو قصر الموصوف على الصفة و لا يمتنع من مشاركة غيره في الصفة ، فيجوز أنْ تكون تلك الصفة حاصلة لموصوف آخر[٤٤] ، والمقصود بالصفة ليس النعت النحوي ، وإنّما هي الصفة المعنوية التي تعني القائم بالغير[٤٥] ، وتكون هذه الصفة حقيقية أو مجازية ، ويكون الموصوف هو الذي يتصف بالمعنى ، فلا يمكن أنْ يكون بالضرورة ذاتاً[٤٦].

ويعدّ القصر في البلاغة العربية صورة من صور التراكيب التي تأتي للإثبات ، وكذلك يزيد القصر على غيره من الحجج على الإثبات بالتخصيص ، فيقوم بتخصيص صفة معينة بموصوف معين أو العكس .

وقد قسّم علماء المعاني القصر على عدة أقسام معتمدين في ذلك على طرفي القصر ، والمطابقة في الكلام من خلال الواقع ، فضلاً عن حال المتلقي ، **ومنها :**

القصر الحقيقي : وهو الأسلوب الذي يكون موجوداً في قصر الصفة على الموصوف وينعدم وجوده في قصر الموصوف على الصفة ، مثلاً: ما أحمد إلّا كاتب ، فالحكم هنا أنّ أحمد لا يتصف إلّا بالكتابة ، و قصر غير حقيقي وفيه يمتنع الموصوف من أنْ يشاركه غيره في الصفة عكس الأول ، نحو : ما في الدار إلّا زيد [٤٧] ؛ ولعلّ سبب تسميته بهذا الاسم لاتسامه بالعموم والمطابقة للحقيقة والواقع.

وهناك نوع آخر أُطلِق عليه بالقصر الإضافي ويعني ما انفرد به القصر بالتخصيص والتعيين .وقد قسموه على ثلاثة أقسام هي :١. قصر الإفراد : يكون فيه القصر لبيان عدم وجود شريك للمقصور عليه في تللك الصفة ، فضلا عن نفي اعتقاد المخاطب ، نحو : لا خطيبَ إلّا زيدٌ ، وهذا الكلام لمن يعتقد أنّ أحمد وزيد وسعيد يشتركون في الخطابة.

٢. قصر التعيين : يكون فيه القصر لمن تساوى عنده الشيئان ، ويكون متردداً بين الإثبات والنفي ، نحو : ما جاء إلّا أحمد.

٣. قصر القلب : هو قلب الأحكام التي تكون في ذهن المخاطب كالاعتقاد بأنّ زيداً أستاذ ، نحو : ما زيد إلّا طالب.(٤٨) ويمكن تمثيلها بالمخطط الآتي :

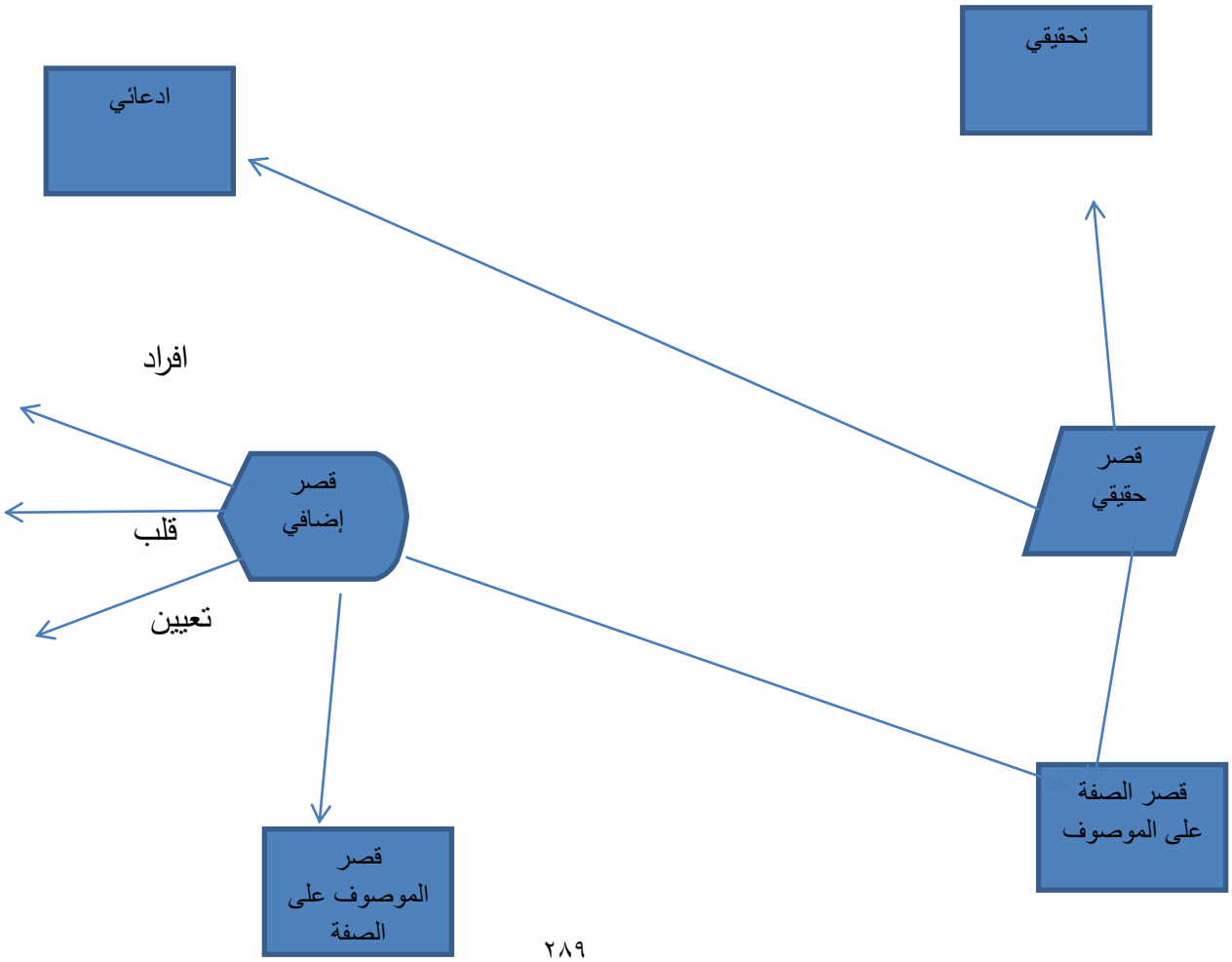

١. حجاجية القصر بالنفي والاستثناء :

تحدث سيبويه عن النفي والاستثناء وعلى وجه الخصوص (إلّا) ، وإن لم يصرح بشكل واضح بمصطلح القصر ، فقد قصد معناه ، فقال : ((فأمّا الوجه الذي يكون فيه الاسم بمنزلتة قبل أنْ تلحق (إلّا) ، فهو أنْ تدخل الاسم في شيء تنفي عنه ما سواه وذلك قولك : ما أتاني إلّا زيدٌ ، وما لقيت إلّا زيداً ، وما مررت إلّا بزيدٍ ولكنّك أدخلت (إلا) لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ولتنفي ما سواها فصارت هذه الأسماء مستثناة))[٤٩] ، والملاحظ من ذلك أنّ ما قصده سيبويه عن (إلا) ، هو تخصيص ما قبل (إلا) بما بعدها ، ونفى ما سوى ذلك.

ويعدّ القصر إثبات حكم للمذكور ونفيه عمّا عداه ، فهو تخصيص أمر بأمر ونفيه عمّا سواه ، أي يكون عاما وخاصا ، والخاص لا يكون إلا من عام كي تلحق الصفة بالموصوف ، نحو: لا إله إلّا الله ، والواضح من ذلك أنّه لا شيء يستحق الالوهية بحق إلا سبحانه وتعالى ، ومن الممكن أنْ يكون عاماً ، وكذلك مناسبا للمستثنى من جنسه نحو : ما كتب إلّا زيدٌ ، أو ما ذهبت إلا صبيحة الجمعة والتقدير : ما كان ذهابي إلى ذلك المكان إلا صبيحة الجمعة.

وقد يأتي النفي بـ (لا) مثلا : (لا يعلم الغيب إلّا الله) ، ففي هذا المثال تخصيص علم الغيب بالله فحسب ، ولا يتعدى إلى سواه ، وتجب هنا الموافقة في الإعراب وبذلك وجب القصر متى ما وجب منه شيء بـ (إلّا) ضرورة ببقاء ما عداه على صفة الانتقاء[٥٠].

وعدّتْ الدراسات الحديثة (النفي والاستثناء) ، نوعاً من أنواع العوامل الحجاجية الذي يوجه الحجج نحو نتيجة ضمنية واحدة[٥١] ، و وظيفته العمل على قصر الشيء وحصره بصاحبه دون غيره ، فضلاً عن أنّه يضيف إلى الكلام قوة حجاجية لها الدور الأساسي في زيادة طاقة حجاجية من خلال توجيهه ، نحو النتيجة[٥٢] ، ويمكن القول بأن النفي والاستثناء من التراكيب التي تترتب فيها الحجج بحسب درجة قوتها الحجاجية ؛ لأنّه عامل حجاجي يوجه القول نحو الانخفاض[٥٣] ، ومن ذلك يتبين أنّ للقصر وظيفة استدلالية يخرج بها المخاطب إلى نتيجة مقصودة[٥٤].

وقد جاء النفي والاستثناء في شعر الشريف الرضي ، **في قوله :**

وما المـــــدحُ إلّا في النبـيِّ وآلِـهِ يُرامُ وبعضُ القولِ ما يُتجَنّبُ

وأوّلى بمـــــدحي مَن أعِزُّ بفـخـرِهِ ولا يشكُرُ النّعمَاءَ إلّا المـهذَّبُ

أرى الشـــعرَ فيهمْ باقـياً وكأنّمـا تُحَلِّقُ بالأشـعارِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

وقالوا : عجيبٌ عُجْبُ مِثْلي بنفسِهِ وأينَ على الأيام مِـثلُ أبـــي أبُ

أعِـدُّ لفَـخرِي في المَـقامِ مُحمّداً وأدعُوا عليّاً للعلى حيـنَ أركَـبُ(٥٥)

يُباهي الشريف الرضي بأعظم رمزين عربيين إسلاميين عرفهما التأريخ العربي والمسلمون ، فهو لا يمدح هنا ، بل يخاطب من لم يكن لهم أصل ولا نسب يُعتدّون به ، فنلحظ حبهم في قلبه قد خالط دمه وشحذ همته ، فقد أكّد أنّ المدح يكون محصوراً في النبي وآل بيته الطاهرين ؛ لأنّه أدخل العامل الحجاجي (ما + إلا) ، عندما حصر المدح في شخص النبي وآله ، فهو عامل حجاجي يقوم بتوجيه الحجج نحو نتيجة ضمنية واحدة ، فالملاحظ من ذلك أنّ للحصر دلالة واضحة على التوكيد ، وكذلك هي عامل حجاجي قوي، فالعوامل الحجاجية تتضمن بعداً حجاجياً ، فضلاً عن كونها محط الدراسات التطبيقية ؛ لأنّ الحجاج يؤكده المتكلم بوساطة الأدوات والعوامل الحجاجية التي تهدف إلى التأثير في السامع ، وإقناعه بصحة رأيه ، ووجهة نظره من خلال عامل القصر والاستثناء(٥٦).

وأورد ذلك في مقام آخر ، **إذ قال** :

أنا المرءُ لا عِرْضِي قريبٌ من العِدى و لا فيّ للباغي عليّ مقالُ

وما العِرْضُ إلّا خيرُ عضوٍ من الفتى يُصـابُ وأقوالُ العـداةِ نِبَالُ

وقـورٌ فإنْ لم يَرْعَ حـقـي جـاهِـلٌ سألتُ عن العوراءِ كيفَ تُقالُ(٥٧)

إن صيانة العرض عنده مشهودة من جانبين :

الأول : نسب الأب ، والثاني : نسب الأم ؛ لأنّ أباه عالم جليل قد مثّل النقابة أعواماً ، إضافة إلى أنّه شغل سفيراً بين الخلفاء والأمراء.

وقد تمثّل الحجاج هنا بالشكل الآتي :

ما نتيجة ← إلّا ← حجة ←

تكون قراءة الملفوظ الحجاجي في نص الشريف الرضي على وفق المخطط الآتي :

وما العرض قريب من العدى إلا خير عضو من الفتى

وجّه الخطاب نحو نتيجة واحدة ومحددة ؛ لأنّ الغرض من الحصر هنا هو حماية وصيانة العرض والإثبات بأنّه خير من الفتى ، وهو الأمر الذي وجّه ذهن المتلقي إلى معنى تفضيل العرض على عضو من الفتى ، وبذلك تمكنت لفظة (يُصاب) من تحويل وجهة الدلالة ، إذ انطوى التعبير عِبر توظيف (خير من الفتى) بـ (يصاب ، و وصف أقوال العداة بالنبال) على طاقة حجاجية ، فضلا عن المعشر الذي ينتمي إليهم الشريف الرضي ، حيث أنّهم ملكوا وحموا وصانوا أعراضهم ، وكلّ هذه المعاني لم تتشكل إلا بجملة الحصر (وما العرض ... إلا خير...).

وقوله :

ونلحظ من ذلك أنّه قد ذكر في نصه عاملاً حجاجياً يختص بالنفي والاستثناء ، مكوّنا من أداتين : إحداهما تفيد النفي ، والثانية :فائدتها الاستثناء ، ومجرد دخول هذا العامل الحجاجي على التركيب يكسبها السمة الحجاجية ، وذلك يوضحه المخطط الآتي :

أداة نفي لا	أداة استثناء إلّا
نتيجة	حجة
لا أعرف الفحشاء	إلّا بوصفها
نفي	استثناء
نتيجة	حجة

فأسلوب القصر المتكون من (لا ... إلّا) يفيد تدعيم الحجة ، فجاء قوله ليبين نفيه لمعرفة الفحشاء ، وكذلك عدم تلفظه للكلمات القبيحة وهو في حالة الغضب ، فضلاً عن أنّ الاستثناء الذي حلّ بعد الأداة قد أفاد تدعيماً للحجة المتضمنة في قوله : (لا أعرف الفحشاء) ؛ لأنّ هذا العامل تركيب تترتب فيه الحجج كلّ بحسب درجته الحجاجية على وفق السلّم الحجاجي ، فهو عامل حجاجي يوجه القول نحو وجهة واحدة نحو الانخفاض ، وهذا ما يريده المتكلم أنْ يكون وسيلة لإقناع المتلقي(٥٨) ،

ومما تقدم نلحظ بأنّ الشريف الرضي قد بنى حجاجه على جملة من المنطلقات ، وهي مسلّمات يقبلها الجمهور عامة والمتلقي خاصة ، فقد استثمرها الرضي للتوسع في عمله الحجاجي ، وزِيدَ على ذلك أنّها حظيت

بالموافقة وهي غير قابلة للشك أو الدحض ؛ لأنّ توجيهه كان محصوراً في توجيه ذهن المتلقي نحو النتيجة التي يروم إقناعه بها.

٢. حجاجية إنـمـا :

عرض الجرجاني في حديثه عن (إنّما) ، أنّها تأتي بمعنى (ما + إلّا) ، من نحو قوله تعالى : ((قُلْ إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن))(٥٩) ، فالمعنى هنا يكون : ما حرّم ربّي إلّا الفواحش(٦٠) ، مُضيفاً إلى ذلك أنّ لها فائدة في سياق الكلام ، إذ يأتي بعدها ((إيجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره ، نحو : إنّما جاءني زيدٌ ، عُقِل منه أنّك أردت أنْ تنفي أنْ يكون الجائي غيره ، فمعنى الكلام معها شبيهٌ بالمعنى في قولك : (جاءني زيدٌ لا عمرو) ، وهي أنك تعقل معها إيجاب الفعل لشيءٍ ونفيه عن غيره دَفْعةً واحدة في حالٍ واحدةٍ ، وليس كذلك الأمر في : جاءني زيدٌ لا عمرو ، فإنّك تعقلهما في حالين : وهي أنْ تجعل الأمر ظاهراً في أنّ الجائي (زيدٌ) ، ولا يكون هذا الظهور إذا جعلت الكلام (بلا) ، فقلت : جاءني زيدٌ لا عمرو)) (٦١) ، والذي دفع الرازي عن الحديث عنها وصيغتها وصورتها التعبيرية هو ما أوضحه فيها أنّها تأتي لخبر بالأصل لا يدفع المخاطب صحته ، كقوله تعالى : ((إنّما تُنذِرُ مَن اُتّبَعَ الذكر...))(٦٢) ، فالإنذار هنا له تأثير مع من اتبع الله وآمن به ، فضلاً عن فائدة أخرى هي تخصيص الحكم بالمذكور ولهذا التخصيص دلالة ، حينما يستعمل في عبارات ثلاث :

١ـ جاءني زيدٌ لا عمرو.

٢ـ إنّما جاءني زيدٌ.

٣ـ ما جاءني إلّا زيدٌ.

فالمعاني متقاربة ، لكنّ الفرق يكمن في العبارتين (١، ٢) ؛ وذلك لأنّ في الثانية يتضح أنّ إيجاب الفعل لشيء ومجيء النفي لغيره ، وهذا مختلف تماماً عمّا جاء في العبارة الأولى : جاءني زيدٌ لا عمرو ، من خلال جعلك الأمر ظاهرا في تفسير أنّ الذي جاء هو زيدٌ ، فقد يكون مختلفاً عن قوله : جاءني زيد لا عمر ، ودلالته الأولية ليست على نفي التشريك ، وإنّما على إثبات التخصيص ، أمّا المثال الثالث فيحتمل فيه أنّ المراد نفي أنْ يكون هناك مَنْ جاء معه (٦٣) ، ولو جعلت هذه العبارة خاضعة لمقولة التوجيه الحجاجي عند ديكرو ، فالملاحظ أنّ (إنّما) تقوم بتوجيه الملفوظ نحو نتيجة محددة بمجرد إدخالها في صلب التركيب ، لذلك نلحظ أنّ الجائي في قول الجرجاني هو زيد لا غير ، فهي نتيجة بحد ذاتها يروم فيها المتكلم إيصالها إلى المتلقي وإقناعه بأنّ الذي جاء هو (زيد) ؛ لأنّه ربّما يتوهم المتلقي بمجيء زيد أو سعيد أو صالح(٦٤) ، فمجرد

دخول (ما) على (إنّ) يطرأ تغيير وظيفي ، وكذلك يصبح لها معنى جديد فتتغير دلالتها على التوكيد وتنتقل من التوكيد العادي إلى التوكيد القاصر(٦٥).

وجاءت في **قوله** :

راحـلٌ أنت والليالي نُـزولُ وَ مُضِرٌّ بك البقاءُ الطويلُ

لا شُجاعٌ يبقى فيعتنِقَ الــ بِيضَ ولا آملٌ ولا مأمولُ

غايةُ الناسِ في الزّمانِ فَنَاءٌ وكذا غايةُ الغُصونِ الذّبُولُ

إنّما المرءُ للمنية مخبُـو ءٌ وللطّعنِ تُسْتَجَمّ الخُيُولُ(٦٦)

في خطابه نلحظ أنّه كان متزناً ، وكابحاً لانفعالاته الجامحة في شبابه ، فضلاً عن وقاره ، حينما ينظر إلى الدنيا بخلاف مَن كان مغترّاً بها ، وهذا يتطابق مع ما أنشده في مطلع قصيدته ؛ وذلك لطبيعة الشعور الذي طغى عليه شعور ترفّع به عن الأمور الدنيوية ، لذلك يرى أنّ العبور منها غاية لابدّ أنْ يبلغها المرء.

فالهدف من إدخال العامل الحجاجي (إنّما)، هو القصر، ليكون قاعدة للمرور من المقدمة إلى النتيجة كما موضح بالتخطيط الآتي :

مقدمة ← نفي ← إنّما ← إثبات ← نتيجة ←

قد منح في خطابه الشعري قوة حجاجية بالغة الأهمية ، فقد حصر الشاعر هنا (المرء) في لفظة (مخبوء) ، وربطه بالنتيجة للتقوية ، والهدف من هذا التوظيف الحجاجي لـ (إنّما) في النص الشعري هو التأثير وتقوية طاقة الملفوظ الحجاجية ، من خلال تقليص ما يدخله من غموض ، إضافة إلى ذلك التعددية في التأويلات التي يجعلها العامل الحجاجي محددة من حيث الربط بين الحجة والنتيجة(٦٧).

غير أنّ ما نلحظه أنّ (إنّما) وجهت القول نحو نتيجة محددة تمثلت في حصر لفظة (المرء) بصلتها بالجملة الأولى ، وكذلك امتازت (إنّما) بإثبات الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة(٦٨).

وقال في موضع آخر :

ظلٌّ لمّاعٍ جلاهُ بارِحٌ بعدَ ما أبرقَ حيناً وَرَعَدْ

لاتَعدَّ العيشَ شيئاً إنّه نَفَسٌ يَقْضـي وأيامٌ تُعَـدْ

إنّما الأيام يومٌ واحدٌ وغرورٌ اسمُهُ اليومَ وَغَدْ(٦٩)

يمدح بهاء الدولة في قصيدة طويلة ويذكّر بالمواعظ ، ناهيك عن أمور أخرى ، فيصف بهاء الدولة بالظل اللمّاع ، وكذلك وصفه لبقاء الإنسان في الدنيا لا تساوي شيئاً ؛ لأنّها أيام معدودة ، فقد وصف كل هذه الأيام ما هي إلا يوم واحد ، وفي قوله جاء مُذكّراً ومنبهاً بأنّ الأمر معلوم لا ينكره المخاطب وهو عدم الفرح بأيام الدنيا وحقيقة النهاية الحتمية بالموت لا يجهلها أحد ، فنبه الشريف الرضي مستعملاً لذلك (إنّما) ؛ لأنّها تأتي لأمر لا يجهله المخاطب ، ولا يدفع بصحته(٧٠).

إضافة إلى ذلك إنّ التوجيه الحجاجي استدعى أنْ يكون مؤكدا بـ (إنّما) لينبه بالتأكيد على مدة عيش الإنسان في الدنيا ما هي إلا أيام معدودة ، زيادة على ذلك ليقصر في الوقت نفسه الأيام وكثرتها على يوم واحد ، مما يستدعي المتلقي إلى إعمال فكره وترك أطماعه ، وجاء القصر بـ (إنّما) هنا على سبيل التنبيه وليس على الإخبار أو الإنكار ؛ لأنّ المتلقي يعلم بالأمر ولا يحتاج لمن يخبره بأنّ الايام يوم واحد.

نخلص من ذلك أنّ أسلوب القصر تكمن قوته وبلاغته في أنّه يتضمن حكمين مختلفين في آنٍ واحد ، أحدهما منفي والآخر مثبت ، في حين أنّ باقي الأساليب الأخرى تشتمل على حكم واحد فقط ، ويكون إمّا إثباتاً لما يريده المتكلم ، أو نفياً لما لا يريده ، ونلحظ كذلك بأنّ أسلوب القصر يُوظف في المواقف التواصلية التي يكون فيها المتلقي منكراً لأمر ، أو جاهلاً له ، أو شاكاً فيه ، فضلا عن ذلك أنّ القضية محل التواصل هي قضية مهمة حريّ بالمتكلم والمتلقي وجميع أطراف العملية التواصلية أنْ يعطوها رعاية واهتماماً كبيراً ، ويدركوا خطورتها ، ويتأملوا ما جاء فيها من إثبات أو نفي.

الهوامش

١- ينظر: العوامل الحجاجية في اللغة العربية : ٢٧- ٢٨.

٢ - ينظر : اللغة والحجاج : ٢٥ ، وبلاغة الإقناع في المناظرة : ,١٠٠

٣- ينظر : الحجاج في اللغة ، بحث ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته : ١/ ٦٥.

٤- ينظر : الحجاج في اللغة ، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم : ٣٧٦.

٥- ينظر : الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنيوية ، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته : ١/ ٤٣٥- ٤٣٧.

٦- العوامل الحجاجية في اللغة العربية : ٢١

٧- ينظر : البعد التداولي في الحجاج اللساني ، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته : ٢/ ٢٥٤.

٨ - النظرية الحجاجية : ١١٢.

٩ - ينظر : العوامل الحجاجية في اللغة العربية :٣٥.

١٠ - ينظر : العوامل الحجاجية : ١٦

١١ - ينظر : لسان العرب : المجلد السادس، ج٥٠/ ٤٥١٢.

١٢ - ينظر المصدر نفسه : المجلد الأول ، ج٧/ ٥٤٧.

١٣ - ينظر : المصطلح النحوي : ١٧٢.

١٤ – ينظر : من أسرار اللغة : ١٧٨.

١٥ – الديوان : ١/ ٢٢٩.

١٦ – شرح المفصل : ٨/ ١٠٧.

١٧ – ينظر : العوامل الحجاجية : ٥٢.

١٨ – ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٤٦.

١٩ – ينظر : العوامل الحجاجية : ٤٧ ، و ٥٠.

٢٠ – ينظر : العوامل الحجاجية : ٤٩– ٥١.

٢١ – ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النص : ٩٤.

٢٢ – ينظر : الجنى الداني : ٢٩٤.

٢٣ – ينظر : التطور النحوي : ١٦٨– ١٧٠.

٢٤ – الديوان : ٢/ ٧٣– ٧٤.

٢٥ – الديوان : ١/ ٥٩١.

٢٦ – الديوان : ٢/ ٢٩٨.

٢٧ – ينظر : الجنى الداني : ٣٢٢ – ٣٢٨.

٢٨ – الديوان : ١/ ٥٧– ٥٨.

٢٩ – ينظر : العوامل الحجاجية : ٣٣—٣٤.

٣٠ – الديوان : ١/ ٤٢٥.

٣١ – شرح المفصل : ٧/ ١١١.

٣٢ – ينظر : الجنى الداني : ٤٥٩– ٤٦٣.

٣٣ – هود/ ٨.

٣٤ – ينظر : معاني النحو : ١٠/ ٢٢٩.

٣٥ – ينظر : إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية : ٢٤٤.

٣٦ – الديوان : ١/٢٥٦.

٣٧ – الديوان: ١/ ١٦٧.

٣٨ – ينظر : الحجاجيات اللسانية والبنيوية ، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته : ١/ ٤٣٥ـ ٤٣٧.

٣٩ – ينظر : العين ٥/ ٥٧ .

٤٠ – مفتاح العلوم : ٢٨٨.

٤١ – ينظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح : ٣/ ٢ ، والبلاغة والتطبيق : ١٦٩.

٤٢ – ينظر : المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٤٣ – الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : ٧١٦ ـ ٧١٧.

٤٤ – ينظر : المطوّل : ٢٠٥.

٤٥ – ينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : ٣٩٣.

٤٦ – ينظر : دلالات التراكيب دراسة بلاغية : ٧٩.

٤٧ – ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ٩٨ ـ ٩٩.

٤٨ – ينظر : مفتاح العلوم : ٢٩٠ ، و الإيضاح في علوم البلاغة : ٩٩– ١٠٠.

٤٩ – الكتاب : ٢/ ٣١٠.

٥٠ – ينظر : دلائل الإعجاز : ٢٦٠. ، ومفتاح العلوم : ٢٨٩ – ٢٩٠ ، وتلخيص المفتاح :٤٦ ، وشروح التلخيص : ٢/ ١٩١ ، وجواهر البلاغة : ١٦٥ ، وعلم المعاني (بسيوني) : ٢/ ٣٥– ٣٦ ، وعلم المعاني (عتيق) : ١٥١.

٥١ – ينظر : التداولية في التفكير البلاغي : ٩٥.

٥٢ – ينظر : الحجاج في كلام الإمام الحسين (أطروحة) : ٧٧.

٥٣ – ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٥١٩ – ٥٢٠.

٥٤ – ينظر : القيمة الحجاجية لأسلوب القصر (بحث) في مجلة الخطاب ، العدد / ٣ ، لسنة ٢٠٠٨ : ١١٧.

٥٥ – الديوان : ١/ ١٧٢.

٥٦ – ينظر : في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراءات) : ٩٧.

٥٧ – الديوان : ٢/ ١١٠

٥٨ – ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٥١٩– ٥٢٠.

٥٩ – الأعراف/ ٣٣.

٦٠ – ينظر : دلائل الإعجاز : ٣٢٨.

٦١ – دلائل الإعجاز : ٣٣٥

٦٢ – يس / ١١.

٦٣ – ينظر : نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : ٢٢٥ و ٢٢٨.

٦٤ – ينظر : العوامل الحجاجية : ٥٤.

٦٥ – ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٣٨.

٦٦ – الديوان : ٢/ ١٦٣.

٦٧ – ينظر : العوامل الحجاجية : ٣٣– ٣٤.

٦٨ – ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : ١٠٤.

٦٩ – الديوان : ١/ ٣٣٥.

٧٠ – ينظر : دلائل الإعجاز : ٣٣٠– ٣٣١.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتب الجديد المتحدة ، ط١ ، ٢٠٠٤م.
- إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية ، شكري المبخوت ، مركز النشر الجامعي ، ٢٠٠٦م ، د. ط.
- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم ، إشراف : حمادي صمود ، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية . تونس.
- الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، الخطيب القزويني ، وضع حواشيه : إبراهيم شمس الدين ، منشورات محمد علي بيضوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٣م.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، تأليف : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الاداب . القاهرة ، ١٩٩٩م.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، تأليف : عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة الاداب . القاهرة ، ١٩٩٩م.
- بلاغة الإقناع في المناظرة ، د. عبد اللطيف عادل ، منشورات ضفاف ، بيروت . لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣م.
- بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت ، ١٩٩٠م.
- البلاغة والتطبيق ، د. أحمد مطلوب ، ود. حسن نصار ، وزارة التعليم العالي ، ط٢ ، ١٩٩٩م.
- التداولية في التفكير البلاغي دراسة في غرر البلاغة لهلال بن محسن الصابىء ، تأليف : د. قالط بن حجي العنزي ،عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ط١ ، ٢٠١٤م.
- التطور النحوي للغة العربية ، د. رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي . القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٤م.
- تلخيص المفتاح للقزويني ، مكتبة البشرى . جمعية شودهري محمد علي الخيرية . باكستان ، ط١ ، ٢٠١٠م.

- الجنى الداني في حروف المعاني ، صنعه : الحسن بن قاسم المرادي ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، والأستاذ : محمد نديم ، الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ط١ ، ١٩٩٢م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع اللسيد أحمد الهاشمي ، ضبط وتدقيق : د. يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية ، صيدا . بيروت ، د. ت.
- الحجاج في كلام الإمام الحسين (عليه السلام) أطروحة دكتوراه ، عايد جدوع حنون ، جامعة البصرة ، ٢٠١٣م.
- الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في الخطابة الجديدة ، مجموعة من المؤلفين ، تحرير وإشراف: حافظ إسماعيل علوي ، دار الروافد الثقافية ـ ناشرون ، ط١، ٢٠١٣م.
- دلالات التركيب دراسة بلاغية ، د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة . القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٧م.
- ديوان الشريف الرضي ، ترجمه وعلّق عليه وضبطه وقدّم له : د. محمود مصطفى حلّوي ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط١ ، ١٩٩٩م.
- شرح المفصّل لابن يعيش النحوي ، إدارة الطباعة المنبرية ، د. ت.
- شروح التلخيص مختصر العلّامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، د. ت.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، بهاء الدين السبكي ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ، صيدا . بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م.
- علم المعاني د. بسيوني عبد الفتاح ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . القاهرة ، ط٤ ، ٢٠١٥م.
- العوامل الحجاجية في اللغة العربية ، د. عز الدين الناجح ، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع ، تونس ، ط١ ، ٢٠١١م.
- العين ، للخليل بن أحمد الفراهيديّ ، تحقيق : د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي ، سلسلة المعاجم والفهارس.
- في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي ، دار الرائد العربي ، بيروت . لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٦م.

- في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراءات) القيمة الحجاجية لأسلوب القصر (بحث) في مجلة الخطاب ، العدد / ٣ ، لسنة ٢٠٠٨.
- الكتاب لأبي بشر عمرو بن عثمان الملقب بـ (سيبويه) ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي . القاهرة ، ط٣ ، ١٩٨٨م.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء الكفوي ، أعدّه للطبع ووضع فهارسه : د. عدنان درويش ، ومحمد االمصري ، مؤسسة الرسالة . ناشرون ، د. ت.
- لسان العرب لابن منظور ، تحقيق : عبد الله علي الكبير ، و محمد أحمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلي دار المعارف – القاهرة .
- اللغة والحجاج لأبي بكر العزاوي ، الدار البيضاء ، ط١ ، ٢٠٠٠م.
- المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري ، تأليف : عوض أحمد القوزي ، عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الرياض ، ط١ ، ١٩٨١م.
- المُطوّل للتفتازاني ، منشورات مكتبة الداوري ، قم . إيران ، د. ت.
- معاني النحو ، د. فاضل السامرائي ، شركة العاتك لصناعة الكتاب ، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٣م.
- مفتاح العلوم لسراج الملة والدين السكّاكي ، ضبطه وكتب هوامشه وعلّق عليه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٧م
- من أسرار اللغة ، د. إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط٦ ، ١٩٧٨م.
- نظريات الحجاج ، جميل حمداوي ، شبكة الألوكة ، د. ط ، د. ت .
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز تأليف : فخر الدين الرازي ، عارضه بأصوله وحققه بالمقارنة مع أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجاني وعلّق عليه : د. نصر الله حاجي مفتي أوغلي ، دار صادر ت بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١٤م.